- ٦ -

موقعة الجمل

كانت عائشة رضى الله عنها فى مكة لأداء الحج، وعندما أدت مناسك الحج، جاءتها الأنباء، بمقتل عثمان، ثم جاءت إشاعات بأن طلحة قد تولى الخلافة، وخرجت نحو المدينة، إلا أن الأنباء قد جاءتها لتؤكد مقتل عثمان وتولى على، فرجعت إلى مكة، وفى الحجر أمام الكعبة اجتمع الناس، فقالت عائشة:

«إن الغوغاء من أهل الأنصار وأهل المياه البدو، أو الأعراب وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلمًا بالأمس، فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام، والله لأصبع من عثمان خير من طباق الأرض

أمثالهم. والله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبًا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه، والثوب من درنه».

وأصبحت أم المؤمنين عائشة تطالب مع بنى أمية الذين هربوا من المدينة إلى مكة بدم عثمان، كذلك ذهب إلى مكة طلحة والزبير بحجة العمرة. حيث طلبا من عائشة أن تذهب معهما إلى البصرة لتحريض الناس على الطلب بدم عثمان.

وحاولت أن تخرج معهما إلى البصرة أم المؤمنين حفصة، ولكن عبد الله بن عمر أقنعها ألا تدخل فى هذا الأمر وعرضت عائشة على أم سلمة أن تذهب معهم فقالت أم سلمة:

- يا عائشة إنك تعرفين منزلة على عند رسول الله ﷺ، فأى خروج تخرجين بعد هذا؟

فقالت عائشة:

- إنما أخرج للإصلاح بين الناس وأرجو فيه الأجر إن شاء الله.

قالت أم سلمة: أى أجر يا عائشة؟ قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. . عودى فقرى فى بيتك.

وأرسلت أم سلمة ابنها عمر إلى الإمام ليقف إلى جواره.

وحاول البعض إغراء عبد الله بن عمر للذهاب معهم إلى البصرة فرفض ابن عمر، وعلق على ذهاب أم المؤمنين عائشة إلى البصرة ومن معها بقوله:

- "إن بيت عائشة خير لها من هودجها، وإن المدينة خير لكم من البصرة، والذل خير لكم من السيف، ولن يقاتل عليا إلا من كان خيرا منه، وإن الشورى والله قد كانت".

وعندما علم الإمام بخروج أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير من مكة متجهين إلى البصرة، حزن حزنًا شديدًا، فهو يريد توحيد الصف.. ويريد أن يكون المسلمون بعيدين عن الصراع..

إنه حزن لخروج أم المؤمنين وطلحة والزبير عن سلطته، وحزن أيضًا لأن معاوية رفض قرار العزل، ويريد أن يتوجه بجيش الشام إلى المدينة لمحاربته.. وكان على الإمام أن يجابه الخارجين عليه.

وبينما كان يتوجه الجيش الذى يقوده طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة، سمعت عند أحد الآبار نباح كلاب.

تساءلت أم المؤمنين:

أى ماء هذا؟

قالوا لها: ماء الحوأب.

قالت فى رعب: ما أرانى إلا راجعة!

قالوا لها: لم؟

قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لنسائه:

«كأنى بإحداكن تنبحها كلاب الحوأب، ثم اتجه إلىَّ وقال: إياك أن تكونى أنت يا حميراء».

ولكن ابن اختها عبد الله بن الزبير أقنعها أنها تركت ماء الحوأب أول الليل.!

واتجه الركب نحو البصرة التى كانت قد بايعت الإمام وحاول الإمام على أن يقنع عائشة وطلحة والزبير بعدم القتال، وأنه ليس له يد فى قتل عثمان.. ولكن بلا جدوى، حتى إنه فى أحد المرات التى حاول فيها أن يبعد أم المؤمنين وطلحة والزبير عن القتال قال للزبير:

- أتذكر يا ابن العمة يوم مررت مع رسول الله ﷺ فضحك وضحكت فقلت أنت:

- لا يدع ابن أبى طالب غروره.

فقال رسول الله ﷺ:

- إنك لتقاتله وأنت له ظالم.. فعلام تقاتلنى؟

فقال الزبير: اللهم نعم.. ولو ذكرتها ما خرجت إليك.

وقال الزبير لعائشة، بعد أن أيقن أنه على باطل، وأنه خرج لقتال الإمام ظلمًا، عندما ذكره بحديث رسول الله بأنه سيقاتل عليا وهو له ظالم.. قال لعائشة:

- يا أماه ما شهدت موطنًا فى جاهلية ولا إسلام إلا ولى فيه رأى وبصيرة إلا موطنى هذا.. إنا يا أم المؤمنين لَعَلَى باطل.

قالت عائشة:

- يا أبا عبد الله خفت سيوف بنى هاشم!

وانصرف الزبير يريد العودة إلى المدينة، وأمرت عائشة أن يكون بدلا منه ابن اختها عبد الله بن الزبير وفى الطريق قتل الزبير بيد رجل اسمه ابن جرموز، ولم يستطع الإمام إقناع عائشة وطلحة بالسلام.. وبدأ القتال..

لم يبدأه الإمام.. إنه كان يتذكر أيام طلحة وكيف زاد عن الإسلام ونبى الإسلام.. ويخاف على أم المؤمنين عائشة.

واندلع القتال.. عنيفًا.. وسقط طلحة فى المعركة وأمر الإمام بأن يعقر أصحابه الجمل الذى يحمل عائشة.

وانهزم جيش عائشة، وانفض من حولها المقاتلون،

وأرسل الإمام إليها أخوها محمد بن أبى بكر، حتى يطمئن عليها وضرب الهودج بيده.

قالت عائشة: من أنت؟

قال: أقرب الناس منك قرابة، وأبغضهم إليك، أنا محمد أخوك. وسألها إن كان قد أصابها شىء، فقد أمره الإمام على بذلك.

قالت: ما أصابنى إلا سهم لم يضرنى.

فقال لها: أما سمعت الرسول يقول: على مع الحق، والحق مع على ثم خرجت تقاتلينه.

قالت: فليغفر الله لى.

وجاء الإمام وقال لها:

- يا أم المؤمنين.. أرسول الله أمرك بهذا؟ ألم يأمرك بأن تقرى فى بيتك - والله ما أنصفك الذين أخرجوك، إذ صانوا عقائلهم وأبرزوك.

ثم قال لها: كيف أنت الآن يا أم المؤمنين؟

قالت: بخير.

قال: يغفر الله لك.

قالت: ولك.

وأمر الإمام أن تعود أم المؤمنين إلى المدينة، وعندما كانت تتعثر فى الجثث تبكى، حتى إنها ندمت وقالت:

- ليت أمى لم تلدنى.

وقالت: ليت كان لى من رسول الله بنون عشرة كلهم ثكلتهم ولم يكن يوم الجمل.

إنه الندم

وعادت إلى المدينة بصحبة أخيها محمد بن أبى بكر.. ولم تنس قط هذا اليوم العصيب.. يوم الجمل.. وما حدث فيه من سفك الدماء.. وكلما تذكرت هذا اليوم بكت.

والأستاذ العقاد وهو يتحدث فى كتابه (الصديقة بنت الصديق) عن الدوافع التى دفعت السيدة عائشة للوقوف هذا الموقف من الإمام، أنها لم تنس موقفه من حديث الإفك. فهو يرى أن عليًا أخطأه التوفيق فى نصيحته. وعائشة أخطأها التوفيق فى مكافحته من أجل هذه النصيحة، وإن كانت لا تلام على أنها كانت تتمنى الخلافة لسواه ويقول أيضًا:

ولكننا إذا ذكرنا هذا كان علينا أن نذكر معه أن السيدة عائشة ندمت على موقفها من يوم الجمل أشد ندامة، فكانت تقول بقية حياتها: ليتنى مت قبل يوم الجمل.

وقالت مرة:

- ليت كان لى من رسول الله ﷺ بنـون عشرة وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل.

وكانت كـلما خاض الناس فـى حديث ذلك اليـوم تبكى حتى تبل خمارها.

وعلينا أن نذكر أنها صانت خصـومتها عن كل كلمة نابية فى حق على رضي الله عنه، فلم تـتهمـه بدم عثـمان، ولم تتـجاوز بالتـهمة بعض من بـايعوه. وقالت عـنه غير مرة إنـه الصوام القوام وأنه أحب الناس إلى رسول الله.

وعليـنـا أن نذكـر أن المغـريـات بالانـدفـاع فى هـذه الغاشية كثيرة:

حدة فى الطبع، ومفاجأة تبتدر الحدة، وبيئة مطبقة العداء لعلـى، وسـعى حثيـث مـن أقـرب النـاس إليهـا وأقربهم إلى إقناعها.

وأنها مع هذا أقدمت على مورد مبهم لا يتضح الشر فيه، وتـرددت هنـاك بين إقـدام وإحـجـام، واعتقـدت أن الأمـر لا يفـضـى إلى قـتـال. وأصـغـت إلـى دعـوة الإصـلاح ودعت إليها.

وهو حادث لا بد له من عبرة وإن عبرته لأحق عِبر التاريخ الإسلامى بالتسجيل.

* * *

مهما يكن من شىء..

فقد مات الرسول ﷺ وهو عنها راض، ودفن فى حجرتها.

وروى عنه ﷺ أنه قال:

«كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة على الناس كفضل الثريد على سائر الطعام».

و.. توفيت رضى الله عنها سنة ست وخمسين للهجرة ودفنت فى البقيع.

رضى الله عنها وأرضاها.

* * *